أقصوصة

أمل... وألم

حين تتصادم مرارة المحنة
مع رغبة البقاء والتمسك بالحياة

كتبتها
يمنى داي

2021

عندما يلتقي الأمل بالألم... تُولد الحكايات

1/ اِكتشاف الفاجعة

يتعرّض الكثيرون لهذا الموقف الصّعب، حين يُبلِغهم صديقٌ أو قريبٌ بأنّه أُصيبَ بمرض السّرطان... ونظرًا لقسوة الموقف، وسُمعةِ المرضِ السّيّئةِ، وتجربةِ المرضى مع رحلةِ العلاجِ المؤلمةِ، قد نبكي بمجرّد سماعِ الخبرِ، وأحيانًا تخرَس جميعُ حواسّنا ولا نَقدِر على النُّطقِ، وأحيانًا نضحكُ ونأخذُ في إنكارِ الخبرِ، وقليلٌ منّا يَعرفُ كيف يمكنُ التّعاملُ في مِثْلِ هذا الموقفِ...

بدأتْ قصّتُها مع المرضِ في بدايةِ شهرِ رمضانَ سنة 1440 هجريّة. كان مجرَّدَ ورمٍ صغيرٍ في الجهةِ اليسرَى من الرَّقبةِ. وصَف الطّبيبُ مضادّاتٍ حيويّةً بسيطةً، ثمّ قويّةً، لكنَّ الأمرَ تضاعفَ، وضاق مجرَى التّنفُّسِ، ثمّ تمّ تحويلُها إلى المستشفَى...

إنّها قصّةٌ أليمةٌ طويلةٌ ومعقّدةٌ، تتخطَّى السَّنواتِ والأيّامَ والسَّاعاتِ والدَّقائقَ والثَّوانِي... رافقَها السَّرطانُ ثلاثَ سنواتٍ... كانتِ اِمرأةً حباها اللهُ حُسْنًا لا مثيلَ له، جميلة تنثرُ الوردَ وتزرعُ الأملَ وتُداوي الجراحَ. إنّها امرأةٌ مختلفةٌ عن بقيّةِ النّساءِ، كلُّ همّها في الحياةِ طاعةُ اللهِ وخدمةُ زوجِها والعنايةُ بأطفالها الثّلاثةِ الّذين تخصُّهم بحنانٍ كبيرٍ وتخشى عليهم أشدَّ خشية... شاء الله تعالى أن تُصاب بالمرض وأن يستمرّ معها. لقد عانت كثيرا من الذهاب إلى المستشفيات وتناول الأدوية، فتساقط شعرُ رأسها وحاجبيْها، وذبلت نظراتها، وضمر جسدها، وتجعّد جلدها، وبدت امرأة بالغة من العمر عتيّا. حقّا لقد ذبلت وأفل نجم شبابِها، وخفت بريق جمالها، وأصبحت جسدًا بلا روح.

2/ مكالمة

بعد الفحوصات تبين أنّ الورم سرطانٌ في الجهاز اللّمفاوي، لكنْ لم يتمَّ اكتشافُ نوعِ السّرطان بعد أخذ عيّنةٍ من الخلايا. كان لا بدّ من اللجوء إلى عمليّة في الرّقبة لاستئصال جزء من الورم والقيام بالتّحاليل اللاّزمة لمعرفة نوعه، لكنّها تردَّدَت بسبب مضاعفات العمليّة، إذ قد تسبِّب - لا سَمَحَ الله - اعوجاجًا في الفكّ...

رفضت العمليّة في البداية لتفهمَ حقيقةَ وضعها، وتسيرَ بوعي في طريقها الملتوية، لذا قامت بإجراء بعض البحوث. لقد كانت فاجعة مؤلمة بالنسبة إليها، فهي تعتبر السرطان معاناةً حتى الموت...

كنتُ أعرف جيّدا حالة المرضى... هناك من يبكي ليل نهار، ومن يكون متماسكا، ومن يفضّل الصّمت، ومن يغلق جميع الأبواب ويظلّ وحدَه لأنّه يحتاج إلى السّكون وعدم سماعِ أيِّ شيءٍ، لذلك أمضيتُ أسبوعا دون أن أحدّث مريم... أردتُها أن ترتّب أفكارها، ولكن إن واصلتُ هكذا قد تظنُّ أني تركتُها بسبب مرضها وضربت بمعاني النبل والوفاء عرض الحائط. لذا كان من واجبي أن أتّصل بها وأطمْئنَها وأهدِّئَها وأصبرَ معها على نوائب الدّهر.

رنّ الهاتف طويلا، وما من مجيب... فارتعدتْ فرائصي، والتبس الأمر عليّ، وتداخل في ذهني. لم اهدأ، ولم أستقرَّ في مكان إلى أن سمعت ذلك الصّوتَ المرتعشَ يقول في خُفوتٍ: صباح النور، معك مريم... مهلا! هذا ليس صوتَها! ليس صوتَ المرأة التي تعشق الأسفار والانطلاق وتحبُّ الحياةَ! أظهرتُ لها أنّي لست على علمٍ بوضعها، وقد كان هذا خطأً منّي:

سألتُها: «أين أنتِ؟ »

أجابتني: «في المستشفى»

فقلت: «ولم؟ هل أنت بخير؟»

ردّت علي: «منذ فترة أتابع أمرا خطيرا... تبيّن أنّي أصبت به».

فقلتُ لها: «ماذا تقصدين؟»

فأجهشت بالبكاء وأحسستُ بقلبها يفيض شجنًا. كنتُ أعرف ما تقصده، إنّه الابتلاء الأكبر والمرض الأخطر، ولكنّ المرضى دائما يجتنِبُونَ ذكرَ اسمِه، ويتناسَوْن كلمة "السّرطان" وكأن النّطق بها سيجعله يحُلّ بالمكان.

شعرتُ بالبؤس والعجز، وأرسلتُ دموعًا في صمتٍ على خدّيَّ، وكانت نظراتي حزينة منكسرة... مادت بيَ الأرض، وخنقتني العبْرة، وما عدت أستطيع تحمُّل هذا الغمِّ الثّقيل لأنّه أقوى منّي.

3/ علاقتي بمريم

مريم صديقتي منذ نعومة أظفاري. إن غابت عنّي ساعة اشتاق قلبي للقائِها وغضبتُ لفراقها. كنّا نحبّ بعضنا منذ الصغر مع أنّنا لم نكن نعي معنى الصّداقة. كلّما كبرنا كبرت صداقتنا، فهي جميلة بريئة ونقيّة، تحمل عدّة معانٍ كالوفاء والتّضحية... حقّا مريم كالمظلّة كلّما اشتد المطر زادت الحاجةُ إليها، وأنا أعِدُها وأعِد نفسي أنّي سأقف معها حتّى تشفى بإذن الله.

إنّي أرى فيها الرّفيقة المثلى والمرأة الأذكى، إنّها كلّ شيء بالنّسبة إليّ. فالصّداقة لا تغيب مثل الشمس، ولا تذوب مثل الثّلج، ولا تموت إلاّ إذا مات الحبّ. بفضل عزيزتي عرفتُ ذاتي، بحثتُ عن جمالي الحقيقيّ، ونبّهت لهفواتي وزلاّتي وأخطائي. لطالما أرادت

لي الخير راجيةً لي ما ترجوه لنفسها، والإنسان لا يعرف قيمة الشّيء إلاّ عند فقدانه، وأنا لا أريد أن أخسر صديقتي... لا أريد أن أخسر مريم.

قد كان مرضُها مؤثّرا حزينا يُثير ألوانا من اللّوعة والحسرة، فقد اصفرّ وجهي واختلجت نفسي. حقّا ما عدتُ أعرف ما أقول، فالقلب أضناه الذّهول...

4/ الضّغوط النّفسيّة

في البداية عاشت هذه المكافِحة أيّامًا مريرةً بين البحث المستمرّ عن حقيقة المرض، إلى درجة الإعياء من المفاجآت، والتّناقضات والمغالطات، وأكثرُ ما أزعجها عدم تفهُّمِ الأطبّاء لحالتها ووضعها الصِّحّيّ.

تفاعَل كلُّ زملاء عملها وأقاربها وجيرانها معها عاطفيّا بالدرجة الأولى خوفا وشفقة عليها. أمّا أبناؤها فكانوا صغارا، ولم يدركوا الحقيقة المرّة في البداية، لكنْ مع مرور الوقت تقبّلوا الأمر الواقع، وتركوا الباقي لله ثمّ للطّبّ. وممّا زاد حزن مريم، هذه الأمّ الرّؤوم الصّبور، أنّ المرض الخبيث وقف حاجزا مقيتا بينها وبين أولادها، فما عادت تراهم ولا تسمع أصواتهم ولا تعرف ردودَ أفعالهم، لكنّها تثق أنّهم يَعُون حجم المأساة، فأصبحوا عونا نفسيّا وعاطفيا كبيرا لها.

5/ مراحل علاج مريم

إنّها تجربة! تجربة قاسية بكلّ تفاصيلها، منذ الشّكوك الأولى الخاصّة بالإصابة بالورم، مرورا بالتأكّد من وجوده بين خلايا الجسم والتهامه لها، ثمّ محاولة الجميع إنكارَ أنّ

هذا واقعٌ بمن فيهم المريضة نفسها، ومن ثمّ البدء في رحلة العلاج الأشدّ قسوة من المرض نفسه، لما تسبّبه من أعراض جانبيّة لا يمكن احتمالها، ولتدميرها أعضاء الجسم الأخرى، ثمّ فقدان الشَّعر. فبدلاً من الجراحة اختارت مريمُ العلاجَ الكيميائيّ الّذي أكل خصلاتِ شعرها وصبَغ جلدَها باللّون الأصفر المريع، في مواجهة واضحة مع الحياة، فالحياة لونها يميل إلى الورديّ، أمّا الأصفر فهو الأقرب إلى الموت حينما يتعلّق الأمر بالمرض الخبيث.

6/ العلاج الكيميائيّ

المستشفى جدران بيضاء، سرير أبيض يرقد عليه جسد مريم مرهقًا، بلا روح، خاليا من أي تعابير عدا ذبول الوجه. وحدَه صوت الأجهزة يُسمع، ورائحة المعقِّمات تملأُ الغرفة.

آه ! مسكينة هي، لقد كرهت المستشفى بما فيه، لكنّ هذه مشيئة الله تعالى وحكمته. والمشكلة أنّ حالها تزداد سوءًا حسب ما يقول الأطّباء، ولكنّ ما يسعدها هو وجود من يقف إلى جانبها ليدعمها ويساندها في محنتها مثلي. إنّها أنا صديقتها المخلصة التي تحفزها على الصّبر والثّبات في محاربة هذا الوحش اللّئيم العنيد، والانتصار عليه نصرا ساحقا كما فعلتُ. نعم، أنا كنت آتيها قبل كلّ جلسة وأحدّثها عن جهادي. بالفعل كنتُ من مرضى السّرطان الذين نَجَوْا بفضل الله. لطالما ردّدت على مسامعها أنّ العلاج، على قسوته، أشبه بالأسلحة الّتي تحارب العدوّ وتفتك به.

ولا أنكر أنّ لطبيبها مصطفى فضلاً كبيرًا عليها: حكمةٌ بالغة، وأسلوب لطيف! كثيرًا ما كان يشجعّها، وقد كانت تراقبه دائما عندما يكفكِفُ دمعَه عند موت أحد المرضى

ويقول: «غلبه المرض! غلبه العدوّ! لكنّنا سنثأر له و لمن سبقه». يحاول دائما أن يظلّ قويًّا حتّى لا ينهار مرضاهُ، يظلّ متمسِّكًا بهم ليساعدهم...

ذهبتُ إلى غرفة العلاج الكيميائي، وجدتُها راقدة على السّرير في سكينة، وقفتُ إلى جانبها، و أمسكت بيدها بقوّة قائلة: أنت بطلة قويّة شجاعة. ثقي بالله ثمّ بنفسك، وسيكون كلّ شيء على ما يرام. وبدأتْ بأخذ الجرعات الكيميائيّة، وكنت طوال الوقت أضغط على يدها وأحدّثها، أو أقرأ القرآن في هدوء إلى أن أحسست بدقّات قلبها تضعف وبيدها تبرد وبجسدها يرتخي.

7/ نبأ مفزع

سكنت الرّوح، وارتخى هذا الجسد، وأفَلَتْ تلك الزّهرةُ، وتوقّف قلبُها إلى الأبد، و برحيلها فقدتُ الرّوح الحَنون، والوجهَ الباسم، وشقيقةَ الرُّوح.

ارتميت على جثّتها الهامدة أقبّلها، وأرجوها أن تستيقظ، وأن تُوقف هذا الكابوس الأسود المؤلم. نظرتُ في يدها، فإذا ورقةٌ كُتب عليها بخطّ عريض: "إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ"... لقد صبرتِ يا صديقتي وكابدتِ وجاهدتِ متشبّثةً بأملٍ ما... كان الأمل نافذتَك الّتي، مهما صغر حجمها، فتحت لك آفاقاً واسعة في الحياة. النّاس معادن تصدأ بالملل، وتتمدّد بالتفاؤل، وتنكمش بالألم. تذكّري يا صديقتي، أنّ الأمل شيء جيّد، والأشياء الجيّدة لا تموت أبداً...

وعندما نُقل الخبر إلى العائلة انقلب المكان إلى مناحة تمزّق نياط القلوب. يا لَهول ذلك الموقف الفظيع... موقف يُفتّت الصّخور، وتنفطر له الأكباد. لقد صعق الجميع، ووقفوا

مذهولين من هول الفاجعة. أمست حياة الزّوج والأبناء خواءً لا بهجة فيها ولا رواء. أمّا أنا فقد صدرت منّي صرخة مدوّية سقطتُ إثرها على الأرض مغشيّا علي...

***

إنْ كان للصّبر والقوّة عنوان، فمرضى السّرطان همُ العنوان. وإنْ كان للأمل في وقت الألم معنًى، فابتساماتُهم هي الّتي تخلقه... اللّهمّ اشف مرضى السّرطان وأرح قلوبهم وأجسادهم يا أرحم الرّاحمين.

*** تمّت ***

مرض السرطان ليس إعلانَ موتٍ بطيءٍ حتميّ، كما يظنّ كثيرٌ من النّاس، وإنّما هو تكاثر لخلايا مريضة يمكن أن تفتِك بالإنسان وتستوطن جسمه إنْ هو لم يقاومها ولم يحاربها بقوّة وعزيمة... وأملٍ.